سورة المسد

مكية وهي ست آيات مع البسملة

مكية بلا خلاف، فقد نقل ابن مردويه عن ابن عباس وعائشة وابن الزبير أنها نزلت بمكة (فتح القدير). وقال العلامة السيوطي في "الإتقان" إن سورة "المسد" هي خامس سورة نزلت على الرسول ﷺ بحسب روايات مختلف الرواة. وترتيب نزول السور الأوائل بحسب بحث السيوطي كالآتي: العلق، ن والقلم، المزمل، المدثر، اللهب. (الإتقان، النوع الأول في معرفة المكي والمدني). إذن، فهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم. ويرى القسيس "ويري" نزولها في السنة الخامسة أو السادسة للبعثة (تفسير القرآن للقس "ويري").

الترتيب والترابط: إنها آخر سورة في القرآن الكريم بحسب مضمونها، لأن مواضيع القرآن تنتهي عند هذه السورة بحسب ترتيب مواضيع السور الذي تحدثتُ عنه مرارًا، أما السور الثلاث الأخيرة، فهي خلاصة القرآن الكريم.

إن ما يربط سورة المسد بالتي قبلها هو أن الله تعالى قد طمأنَ رسوله ﷺ في السورة السابقة أن الفتوحات التي يحرزها لن تنحصر في حياته، بل سوف تستمر بعد وفاته أيضا إلى أن يصبح الإسلام غالبا في العالم، وأنه كلما كان الإسلام بحاجة إلى رجل يُخرج سفينة أمته ﷺ إلى بر الأمان ولا يدَعُ رايته تسقط، فسوف يقيمه الله تعالى من عنده وينصر الأمة الإسلامية. أما سورة "المسد" فهي تكملةٌ لموضوع سورة النصر، حيث بيَّن الله فيها أن هذه الفتوحات لن تستمرّ بعد وفاته ﷺ حتى يصبح الإسلام غالبا فحسب، بل سوف يُهلك الله العدو الذي يقوم لمهاجمة الإسلام ويدمِّر أعوانه وأنصاره أيضا. وقد سُمِّي هذا العدو "أبا لهب" في هذه

السورة، أما أنصاره وأعوانه فسُمّوا امرأته. والمراد من "أبي لهب" أئمة الكفر، ومِن امرأته أتباعهم وأنصارهم، كما أُريدَ مِن زوجة آدم أتباعه أيضا. إذن، فسورة اللهب قد أجابت على سؤال نشأ تلقائيا من مضمون سورة النصر، وهو: حتى ولو استمرت فتوحات الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وأصبح الإسلام غالبا، فمن الممكن أن يخرج في المستقبل عدوٌّ قويّ فيهاجم الإسلام ويقضي عليه، فما الفائدة من غلبته العابرة؟ وردًا عليه قال الله تعالى في سورة اللهب لرسوله ﷺ: يا محمد، اعلمْ جيدا أن الإسلام لن يكون غالبا فحسب، بل ستكون غلبته دائمة، وإذا حاول عدوٌّ القضاءَ عليه، فسوف يدمره الله تعالى بقدرته تدميرا، ويجعل الإسلام غالبا بعد ضعفه، فالضعف الذي يصيبه يكون عابرًا فقط، وسوف تضيء شمسه العالم كله ثانيةً.

وإن لسورة اللهب (المسد) صلةً بسورة الكوثر أيضا، إذ وعد الله نبيه ﷺ فيها بوعدين: كثرة جماعته، وهلاك أعدائه؛ فكأن سورة النصر تتحدث عن تحقق الوعد الأول، أما سورة اللهب فعنْ تحقق الوعد الثاني.

لقد أنزل الله تعالى سورة اللهب في أوائل البعثة شدًّا لأزر المسلمين، حيث أخبرهم أنهم ضعفاء لا يملكون قوة ولا حيلة، ولكن الإله القوي ناصِرهم، ولا تتحرك ذرة في السماء والأرض إلا بإذنه، فمن قام لعدائهم خاب وخسر. ونظرًا إلى موضوع سورة اللهب، قد وضعها الله تعالى في آخر المصحف، وذلك رفعًا لمعنويات الأجيال القادمة، مذكِّرًا المسلمين في كل عصر ألاّ يخافوا الكفر برؤية قوته، بل يجب أن يوقنوا أن إله الإسلام إله قوي غالب، وسوف يدمِّر أعداءهم بنفسه. وكأن سورة النصر واللهب تحملان رسالتين للأمة، إحداهما لتقوية إيمانهم، والأخرى لتذكيرهم بهلاك الكفر.

هناك روايات شتى في كتب التفسير عن سبب نزول هذه السورة أُولاها:

"عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يكتم أمْرَه في أول المبعث ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٥)، فصعد الصفا ونادى: يا آل غالب، فخرجتْ إليه غالب من

المسجد. فقال أبو لهب: هذه غالب قد أتتْك، فما عندك؟ ثم نادى يا آل لؤيّ، فرجع مَن لم يكن مِن لؤيّ، فقال أبو لهب: هذه لؤي قد أتتك، فما عندك؟ ثم قال: يا آل مُرّة، فرجع من لم يكن من مُرّة، فقال أبو لهب: هذه مُرّة قد أتتك، فما عندك؟ ثم قال يا آل كلاب، ثم قال بعده يا آل قصيّ، فقال أبو لهب: هذه قصي قد أتتك فما عندك؟ فقال: إن الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون. اعلموا أني لا أملك لكم من الدنيا حظًّا ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فأشهد بها لكم عند ربكم. فقال أبو لهب عند ذاك: تَبًّا لك، ألهذا دعوْتَنا؟ فنزلت السورة." (تفسير الرازي، وكنز العمال)

والرواية الثانية تقول: "عن ابن عباس قال: لما نزلتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عديّ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرُج أرسلَ رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريشٌ، فقال: أرأيتُكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا نعمْ، ما جرّبْنا عليك إلا صدقًا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر الأيام، ألهذا جمعتَنا؟ فنزلتْ. ويروى أنه، مع ذلك القول، أخَذ بيديه حجرًا ليرمي به رسول الله ﷺ (البخاري: كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك، وروح المعاني).

هاتان الروايتان وردتا في نزول هذه السورة. ولكن يجب أن نعلم أنه لم يُروَ شيء من الرسول ﷺ في نزول السور، إنما هي روايات عن الصحابة، لذلك نجد فيها اختلافا كبيرا أحيانا، إذ تذكُر أحيانًا عدّة أسباب نزولٍ للآية الواحدة. ورواية ابن عباس هذه التي تذكر سبب نزول هذه الآية، لم توجد في التفاسير أية رواية أخرى كهذه، مع أن هذه السورة من أوائل السور، وكان ابن مسعود وعليّ – رضي الله عنهما– من كبار الصحابة الموجودين في ذلك العصر، ولكن لم يُروَ عنهما شيء بشأن نزولها، أما ابن عباس رضي الله عنه فلم يكن قد وُلد وقت نزولها، وإنما بلغ سن الرشد في المدينة المنورة، فمعرفتُه عن السور المكية ليست إلا سماعية، وعليه فلا نستطيع الجزم أن ما ذُكر من شأن نزول هذه السورة يقيني وقطعي. لا جرم أن

أوّل مصداق لكل سورة هو الرسول ﷺ وأهل عصره، ولكن -كما قلتُ عند تفسير السور السابقة- قد جاءت السور الأخيرة من القرآن بترتيب خاص، إذ تركّز إحداهما على زمن النبي ﷺ خاصة، والأخرى على الزمن الأخير للإسلام خاصة؛ وبحسب هذا الترتيب تتحدث سورة اللهب عن الزمن الأخير للإسلام خاصة، لأن السورة السابقة لها (سورة النصر) تتحدث عن زمن الرسول ﷺ خاصة.

يقول المفسرون: كان للنبي ﷺ عمٌّ اسمه عبد العُزّى، وكان يكنى "أبا لهب" لحُسنه وإشراق وجهه، وقد تحدث القرآن في سورة اللهب عن معارضته ومناصبته العداء للرسول ﷺ (البحر المحيط).

ولكن كان أبو جهل -الذي كان اسمه أبو الحكم- أشدَّ معارضة للنبي ﷺ مِن عبد العُزّى هذا، ويتبين لنا من دراسة القرآن أنه لم يذكر أي عدو أو منافق باسمه، وإنما لّمح إليه بكلمات مجملة يمكن أن تنطبق على أكثر من شخص. فمثلا: قد ذكر القرآن الكريم عدو آدم عليه السلام باثنين من ألقابه، الشيطان وإبليس (سورة البقرة: ٣٧، الأعراف: ١٢، طه: ١١٧، ١٢١).. أي أنه كان بعيدًا عن الحق ومبلسا، أي يائسا من رحمة الله. كذلك ذكر القرآن الكريم أحدَ ألدّ أعداء الرسول ﷺ الذي كان يحرّض الناس على محاربته باسم الشيطان، دون ذكر اسمه الحقيقي (الأنفال:٤٩). وهنا في سورة المسد أيضا لم يستخدم القرآن كلمات تشير إلى شخص معيّن، بل يمكن أن تنطبق على أكثر من شخص. فيمكننا القول -آخذين في الاعتبار هذا الأسلوبَ البياني، وكذلك كوْنَ عبد العزى أقلَّ عداءً له من غيره- أن هذه السورة إنما تتحدث عن بعض أعدائه ﷺ الذين كانوا يحرِّضون عليه القوم، وليس الأمر كما ظن المفسرون بأنها تتحدث عن عمٍّ للرسول ﷺ كان حسن الوجه مشرقه. فوصْفه "أبو لهب" ليس إشارة إلى حُسنه وإشراق وجهه، إنما هو إشارة إلى تأجيجه النار، كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. إذا كان لقبه "أبو لهب" إشارةً إلى حُسنه وإشراق وجهه، فما علاقة كوْن زوجته تحلب الحطب لإضرام النار؟ هل كان حملها للحطب يزيد وجهه حُسنًا وإشراقا؟ فالحق

أن هذه السورة تتحدث عن ألدّ أعداء النبي ﷺ الذين كانوا يوقدون نيران الفتنة ضده، فأخبره الله تعالى بفشلهم في مكائدهم. لقد بينت هذا المعنى باعتبار هذه السورة تتحدث عن زمن النبي ﷺ.

أما فيما يتعلق بترتيب هذه السور بحسب مواضيعها -وهو الأهم عند التفسير- فهذه السورة تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام، وعليه فهذه السورة تخبر بالتحديد عن أمة ستوقد نيران الحرب الشديدة ضد النبي ﷺ والإسلام، مستعينة بالشعوب المجاورة لها، فتكون هذه الشعوب بمنزلة يديها، أي أنصارها.

وبالفعل إننا نجد في هذا العصر كتلتين في العالم قد اتحدتا ضد الإسلام والرسول ﷺ، إحداهما كتلة القوى الغربية وأنصارها، والأخرى كتلة القوى الشرقية وأنصارها، وهما المراد من أبي لهب هنا: فهما أبو لهب في ظاهرهما، إذ إن هذه الشعوب حسنة الوجوه وحمرُها في الظاهر، كما أنها أبو لهب بالمعنى الباطن، إذ تعدّ العدّة للحرب النارية بصنع القنابل النووية والهيدروجينية وغيرها. ثم حُقّ لها أن توصف بأبي لهب لأن كتلةً منهما تُعدّ شتى المطبوعات والمنشورات ضد النبي ﷺ وتتآمر على الدول الإسلامية، أما الكتلة الأخرى فتحارب الله تعالى وتنشر الإلحاد والدهرية.. أعني كتلة الدول الشرقية التي قلبَتْ الدول الإسلامية العظيمة رأسًا على عقب، واستولت على سمرقند وبخارى وسنكيانغ، ولا تزال تنسج المؤامرات ضد تركيا والعراق وإيران. فحري بهاتين القوتين أن يطلق عليهما تسمية "أبي لهب" لمكائدهما المادية وعداوتهما الدينية للإسلام.

لقد بين الله تعالى هنا أن هذه الأمم التي ستوجد في الزمن الأخير، سيكتب الله لها ولأنصارها الخيبة والفشل. أما السؤال: ما هما تلك الدولتان اللتان هما بمنْزلة يدين للكتلة الشرقية وتساعدانها في استعدادها الحربي؟ وما هما تلك القوتان اللتان تؤيّدان الديمقراطية الغربية وتناصرانها في حربها؟ فهو قضية سياسية بحتة لا نريد الخوض فيها، غير أنه ليس خافيًا على أحد أن كلتا الكتلتين تسعى لزيادة أنصارها، وتعدّ العُدّة للحرب. ولكن هذه الاتحادات لن تنفعهما شيئا كما يخبر الله تعالى هنا، بل سوف يشلّ يديهما اللتين هما معقد آمال الطرفين.

ثم بيَّن الله تعالى أنه -بالإضافة إلى القوى الخارجية التي هي بمثابة الأيدي للكتلتين- توجد في داخل هذه الدول فئات تحرّض حكوماتها على شنّ الحرب على الله ورسوله. وأي شكّ في وجود مثل هذه الفئات في الكتلتين الغربية والشرقية؟ ومن أجل ذلك سُميت هذه الفئات المحرضة هنا امرأةً، وأخبر الله تعالى أن امرأة أبي لهب ستهلك أيضًا، أي أن الفئات الموجودة داخل تلك الدول، والتي تزيد نيران تلك الدول قوةً بإلقاء الوقود فيها، أيضًا ستصاب بالضعف وخيبة الأمل. والمراد من حمل الحطب تحريض هذه الفئات حكوماتِها على عداء الإسلام وحربه، وبالفعل توجد في الدول الغربية فئات تقوم بتحريضها على نشر المنشورات ضد الإسلام ودعْم دولة إسرائيل، كما توجد في الكتلة الشرقية أيضا فئات تحرّض شعوبها وحكوماتها على تأييد الإلحاد ومحاربة توحيد البارئ تعالى.

ويتضح من هذه السورة أن الله تعالى سيقضي على الفتنتين في نهاية المطاف، فلن ينعم بالسلام هؤلاء الفتّانون من الكتلتين كلتيهما.

ثم أخبر الله تعالى بأن هؤلاء سيخوضون حربًا ملتهبة حتمًا، رغم اتخاذهم كل التدابير لتجنُّبها -حفظ الله العالَمَ منها- مما يعني أن الحرب الذرية والهيدروجينية قد تنشب، غير أنه يتضح من القرآن الكريم أن العذاب قد يُلغى أيضا، لذا فمن الممكن أن يلغى هذا العذاب لو رجع هؤلاء إلى الله تعالى وتابوا واستغفروا بصدق. فليس ضروريا أن تقع الحرب الذرية، فقد تتحقق هذه النبوءة في صورة حرب المبادئ والنظريات.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

تَبَّتْ: تَبَّ يَتِبُّ تَبًّا: هلَك وخسر. وتبّتْ يداه: ضلّتا أو خسرتا (الأقرب). وورد في "المفردات": التبّ والتَّباب: الاستمرار في الخسران: و﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: أي استمرت في خسرانه. (المفردات للإمام الراغب)

يدا: اليدُ: الكفُّ؛ الجاه والوقار؛ القوة؛ والقدرة والسلطان والولاية؛ والجماعة؛ النعمة والإحسان. (الأقرب)

أبي لهب: الأبُ: الذي يتولد منه آخَر مِن نوعه؛ مَن كان سببا في إيجاد الشيء أو إصلاحه أو ظهوره. (الأقرب)

لَهَب: لهِبَت النارُ: اشتعلتْ خالصةً من الدخان. ولَهَبُ النار: لسانُها (الأقرب). فمعنى "أبو لهب": أبو ألسنة النار، أو مخترع المواد المؤجِّجة للنار.

التفسير: مِن أقوى البراهين على صدق النبي ﷺ أنه أعلن بناءً على وحي الله تعالى أنه سينجح في هدفه ولو عارضته الدنيا، ولن يضره أحد شيئا، وأنه حجر الزاوية الذي إذا سقط أحد عليه ترضّضَ، ومَن سقط هو عليه تمزّق، والتاريخ يؤكد صحة دعواه ﷺ. لقد جرت عليه ﷺ زوابع المعارضة، وحاول الناس اغتياله والقضاء على أتباعه بشتى المكائد، ولكنه ظل يعلن في هذه الظروف التي لم يكن فيها بارقة أمل لنجاحه أن الإسلام سيصبح غالبًا في الشرق والغرب، وأن العالم كله سيجتمع تحت رايته. ثم إنه ﷺ لم يبشر بقيام دولة قوية للإسلام فحسب، بل أخبر أيضا أنه سيأتي على الإسلام زمان يتخذ أهله القرآن مهجورا، ويصابون بالتردي والانحطاط، وتنتهي دولهم، وسوف تحتلّ القوى المعادية بلادهم، ويصبح الإسلام غريبا بلا معين ولا حيلة؛ عندها يرسل الله تعالى روح نبيّه ﷺ إلى الدنيا ثانيةً،

فيُحيي الإسلام ثانيةً ويقضي على أعدائه. هذه الأخبار نجدها في القرآن الكريم بكثرة، وقد بين النبي ﷺ تفاصيلها لصحابته، وقد صارت محفوظة في كتب الأحاديث ووصلت إلينا، ثم تحققت كلها بدقة. فإخباره ﷺ عن رقيّه وغلبته في وقت لم يكن فيه أية آثار لنجاحه، ثم إخباره عن انحطاط أمته بعد الغلبة، ثم غلبتها بعد ذلك الانحطاط.. كلها أمور لا يمكن أن تكون مجرد خيال، بل الحق أن الله تعالى هو الذي أخبر رسوله ﷺ بكل هذه الأنباء، لذلك تحققت في ظروف غير عادية. فتحقُّقها برهان ساطع على أن النبي ﷺ كان من عند الله تعالى.

لقد بلغت البلاد الأوروبية اليوم ذروة التقدم، حتى بهرت العالَم كله بحضارتها ومدنيتها ومخترعاتها، بل إن أهل الغرب يقدّمون هذه الأمور دليلاً على تفوُّقهم. فكل دولة تنظر إلى الغرب وتعتبره منبع العلوم كلها. أما الدول الإسلامية التي كان العالم يرتجف رعبًا منها، وكان الأوروبيون يتتلمذون على يديها، وكانت خيولُها قد داست بلادهم، فقد انكمشت وتقلصت في مناطق محدودة جدا. إنّ ذلك الأسد الذي كانت هذه البلدان كالفئران أمامه، قد ضعف جدًا، حتى أخذت هذه الفئران تمرح على جسده وتنهشه، ولكنه لا يقدر على منعها. لقد بلغ اليأس من المسلمين كل مبلغ، ويظنون أن الإسلام هالك لا محالة اليوم أو غدا. وكل مَن زار منهم بلاد الغرب ورأى تقدُّم الغربيين وازدهارهم، أخذ منه اليأس كل مأخذ، ويرجع إلى أهله برسالة واحدة بأن لا أمل في بقاء الإسلام الآن. ذلك لأن الأعداء قد قضوا على قوته السياسية من جهة، ومن جهة أخرى قد ودّعه أهلُه، واتخذوا الغرب إمامًا لهم متفاخرين بالاقتداء به. لقد نسوا أنهم لم يُعطَوْا هذا الكتاب الذي هو منهج كامل للحياة ليعرضوا عنه ويبحثوا عن هدي آخر، إنما أُعطوه ليستنيروا بنوره، وينتفعوا باتّباعه في دينهم ودنياهم.

الحق أن انحطاط الإسلام وتقدُّم الغرب دليلٌ ساطع على صدق النبي ﷺ، لأنه ﷺ قد أدلى قبل ١٣ قرنا بهذه الأنباء مع تفاصيلها بشكل مذهل، وكأنه كان يشاهد على شاشة عرضٍ هذه الأحداثَ التي كان سيمر بها الإسلام. إن تحقُّق هذه

الأحداث قد أكد على صدقه ﷺ، لأن هذا الكم الهائل من علم الغيب الذي بيّنه الرسول ﷺ، لا يمكن أن يطّلع عليه أحد إلا بتعليم عالم الغيب سبحانه وتعالى.

فلا داعي للقلق والقنوط والخوف بما آل إليه الإسلام من ضعف وقلة حيلة، ذلك لأن الله الذي أخبر رسوله ﷺ بانحطاط الإسلام، فبلّغ صحابتَه به، ثم تحققَ بكل دقة؛ هو نفسه سبحانه الذي أخبرَ نبيه ﷺ أيضا أن الإسلام سيسترد مجده الغابر ويصبح غالبًا على أعدائه، وأن كل من يصطدم به يتمزق إربًا، وأن رايته سوف ترفرف على العالم كله ثانيةً. غير أن الله تعالى قد أخبر أيضا أنه بنفسه سينجز كل هذا، فكما حدث في عهد محمد ﷺ، فإن روحه ﷺ ستنْزل إلى الدنيا في الزمن الأخير ثانيةً وتستنزل فضلَ الله ونصرته، فينزل جُند الملائكة من السماء ليجعل هؤلاء الضعفاء أقوياء وورثة البلاد مرة أخرى. لذا فلا مجال لليأس لأي مسلم، إنما عليه أن يظل متمسكا بأهداب النبي ﷺ بكل قوة، ساعيًا لاتخاذ شتى التدابير لتحقيق هذا الهدف سريعًا، وينتظر مع كل ثقة ويقين ذلك اليوم الموعود الذي قد أخبر به النبي ﷺ.

ونسجل فيما يلي بعض الأخبار التي وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي عن هذا الزمن، والتي هي وثيقة الصلة بموضوع سورة اللهب، كي يقرأها المسلم ويزداد إيمانًا مع إيمانه، ويرى كيف أن أنباء انحطاط الإسلام التي أُدليَ بها قبل ١٣ قرنًا تتحقق الآن، فيزداد يقينًا أن الأنباء الأخرى المتعلقة بغلبة الإسلام أيضا ستتحقق مثلها.

اعلمْ أن القرآن الكريم قد ركّز خاصة على اثنتين من الفتن والمصائب التي ستظهر في الزمن الأخير، وذلك لأن الإسلام كان سيتضرر بهما خاصةً، إحداهما الدجال، والأخرى هي ذات مظهرين: أحدهما يسمى يأجوج والآخر مأجوج. فقد ورد في حديثٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ؛ فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ

وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِن الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ (مسلم، كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة).

فمن هذه العلامات فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج. ولو أمعنا النظر وجدنا أن هاتين الفتنتين متشابهتان، أو شعبتان من فتنة واحدة في الواقع، ولذلك نجد القرآن الكريم قد ذكر يأجوج ومأجوج، ولا ذِكْرَ فيه للدجال، مع أن الرسول ﷺ قد حذر من فتنة الدجال كثيرًا، إذ ورد في الحديث أن رَسُول اللَّهِ ﷺ "ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلا وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ. وَلَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ" (الترمذي، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ). فخُلُوُّ القرآن الكريم من ذكر هذه الفتنة الكبرى وذِكْرُه فتنة يأجوج ومأجوج، لدليلٌ بيّنٌ على أنهما اسمان لفتنة واحدة، أو شعبتان لفتنة واحدة. ومما يدعم ذلك أكثر أن زمن الدجال ويأجوج ومأجوج واحد، وورد أن كليهما سينال الغلبة في العالم كله. فثبت أنهما ليسا فتنتين منفصلتين، بل هما مظهران لفتنة واحدة. وقد سمِّيت هذه الفتنة دجالا من منظور ديني، و يأجوج ومأجوج من منظور مادي، إذ الدجال هو المموِّه والخدّاع. فالحق أنّ فتنة آخر الزمان التي ما زال أنبياء بني إسرائيل ينذرون منها ذات شعبتين؛ إحداهما تشير إلى إفساد العقائد والأفكار الدينية وهي الدجال، والأخرى تشير إلى إشعال الفتن السياسية لتدمير أمن البلاد، وهي يأجوج ومأجوج. علمًا أن يأجوج ومأجوج مشتق من الأجيج وهو النار، يقال: أجَّت النار أجيجًا: تلهَّبتْ، وأجّجتَ النارَ فتأجَّجَتْ: ألهبْتَها فالتَهَبَت (الأقرب). فلفظ يأجوج ومأجوج إشارة إلى القوى القوية التي ستغلب على العالم باستخدامها الأسلحة النارية.

بعد هذا الشرح نتوجه أولاً إلى أخبار القرآن المتعلقة بيأجوج ومأجوج. قال الله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (الأنبياء:٩٧).. أي أن الله تعالى سيُبقي يَأْجُوج وَمَأْجُوج منعزلين محصورين في أطراف العالم إلى زمن، ثم يتهدّم الجدار الذي يمنعهم.. أي ستسقط الحكومة الإسلامية وتنكسر شوكتها وتضعف قوتها الروحانية وينسى المسلمون دينهم.

وقد قال الله تعالى في تحديد هذا الزمن: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦).. أي أن الإسلام سيزدهر في زمن النبي ﷺ ثم يضعف بعد ثلاثة قرون كما ورد في الأحاديث، فيظل يضعف ويضعف لألف سنة (البخاري: كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي). مما يعني أن زمن ظهور يأجوج ومأجوج هو بعد ١٣ قرنا من الرسول ﷺ.

ويتضح من الآية السابقة (الأنبياء: ٩٧) أن يأجوج ومأجوج شعوب تعيش وراء البحار والجبال، حيث قال الله تعالى ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. والحدب هو الموجُ، والغِلَظ المرتفع من الأرض (الأقرب)، وعليه، فالمعنى أن شعوب يأجوج ومأجوج المقيمة وراء البحار والجبال ستحلّ في آسيا من فوق الأمواج وقمم الجبال عندما يأتي الوقت الموعود. لقد قلت إنهم سيحلون في آسيا، لأن الحديث هنا عن النبي ﷺ وأعدائه، وأمة النبي ﷺ كانت تقيم في آسيا.

كذلك قال الله تعالى في سورة الكهف ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الكهف:٩٤-١٠٥). هذه الآيات وبضع آيات قبلها تتحدث عن بعض الأحداث التي وقعت في زمن ذي القرنين-

وهو الملِك قورش- حيث ذكرتْ أن شعوب يأجوج ومأجوج التي تعيش في شمال آسيا وشرق أوروبا كانت تغير على أهل آسيا لخصوبة أراضيها، فقام ذو القرنين بصدّ هجماتها بكل قوة حتى أصبحت هذه الأمم محصورة في المناطق الواقعة في أقصى شمال غرب آسيا وشرق أوروبا، فبنى سدًّا لمنع هذه الشعوب عن الهجوم على آسيا. فأخبر الله تعالى أنه لما بلغ ذو القرنين بين جبلين وجد وراءهما قومًا لا يكادون يفقهون كلامه، فقالوا: يا ذا القرنين إن يأحوج ومأجوج يعيثون الفساد في هذه البلاد، فهل نعطيك خراجًا على أن تبني بيننا وبينهم سدًّا؟ قال: إن ما آتاني الله تعالى من قوة للقيام بمثل هذه الأعمال هي أكثر مما عند الأعداء من قوة، فأعينوني بقدرِ وسعكم حتى أجعل بينكم وبينهم سدًّا منيعًا، ائتوني بقطع حديدية لأصنع بها هذا السد. ولّما بناه وساوى بين قمتي الجبلين قال: آتوني الآن النحاس المذاب لكي أقوّي به السدّ. ولّما حال السد دون هجمات يأجوج ويأجوج ولم يستطيعوا عبوره وعجزوا عن ثقبه، قال ذو القرنين: كل هذا قد تمّ بفضل ربي وإحسانه، ولكن عندما يحين وعد ربي عن العذاب العالمي، فسوف يَهدم هذا السدّ ويسوّيه بالأرض، ولا بد أن يتحقق وعد ربي.. أي عند حلول الوقت الموعود تتقدم هذه الشعوب نحو الجنوب والشرق ثانية، فلن يمنعها هذا السد من زحفها، إذ إنها ستأتي عبر البحار، فلن يحول دونهم هذا الجدار. ثم يقول الله تعالى أنه إذا حان هذا الميعاد فسوف تهاجِم هذه الشعوب بعضها بعضًا، ويُنفَخ في الصور فيقع اضطراب شديد في العالم، عندها سوف نجمعهم جميعًا، ونعرض جهنم على الكافرين الذين أعينهم محجوبة عن ذكري.. أي عن القرآن الكريم، ولا يستطيعون سمعًا. أيظن هؤلاء الكافرون مع رؤية كل هذا أنهم سيتخذون عبادي أنصارا لهم من دوني؟ لقد أعددنا لهم جهنم ضيافةً. قُلْ لهم: هل أنبّئكم بقوم هم أكثر الناس خسارة في أعمالهم؟ إنهم قوم قد انصبّت جهودهم كلها في التكالب على الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

لقد تبين من هذه الآيات بجلاء أن شعوب يأجوج ومأجوج ستخرج من بلادها في الزمن الأخير وتستولي على بلاد العالم، ثم تقع العداوة بين كُتْلَتَي يأجوج

ومأجوج، فتتحاربان فيما بينهما في النهاية، فيُمطر كل طرف منهما الطرف الآخر بالنار، ويهلكان. كما أخبر الله هنا أن كلتا الكتلتين تحرز تقدمًا صناعيا مدهشا وتخترع مخترعات مذهلة، ولكن كلا منهما تكون غافلة عن الدين، فلن ينفعهما تقدمهما المادي والعلمي ولن ينقذهما من الدمار.

هذه الأنباء تنطبق على العصر الحاضر تماما، فقد بدأ انحطاط الدولة الإسلامية في بداية القرن السابع عشر الميلادي، وبعدها بدأ شدّ الحبل بين القوى الغربية في حلبة السياسة والتقدم العلمي. وبدأ الإلحاد والفلسفة يهجمان على الدين حتى أصبح بلا حول ولا قوة ولا جدوى، وقدّم الإلحاد من خلال الأدلة المنطقية البحتة أشكالاً للنُظم الاقتصادية أذهلت العالم، ومنها الشيوعية. لا أظن أبدًا أن الدنيا يمكنها -بعد إعراضها عن خالِقها وعن النظام الاقتصادي الذي قدّمه- أن تقبل أي شيء غير الشيوعية أو النازية. فبعد الإعراض عن الله تعالى وتعاليمه، لا بد أن يقول المرء: إن الناس سواسية، ويجب توزيع خيرات الدنيا كلها بينهم على السواء بالقوة، أو يقول: يجب العمل بمبدأ "الدنيا لمن غلب"، فمَن امتلك القوة، فهو الأجدر والأكفأ والأحق بما في العالم من ثروات وخيرات. يا ترى، هل هنالك نظرية أخرى يمكن أن يقدمها العقل الخالص؟ كلا، فالدين هو الذي يتحدث عن الله والأخلاق، ويقدّم طريقًا وسطًا بين النظريتين، وإلا فإن العقل المجرد لا يقدم إلا هاتين النظريتين.

هناك أنباء عن يأجوج ومأجوج في الكتاب المقدس أيضا، حيث أخبر أن العداء بين هاتين القوتين سيشتدّ في الزمن الأخير حتى يؤدي إلى الحرب بينهما، وكل منهما ستستخدم الأسلحة النارية، فقد ورد: "وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَوْمَ مَجِيءِ جُوجٍ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنَّ غَضَبِي يَصْعَدُ فِي أَنْفِي. وفي غَيْرَتِي، فِي نَارِ سَخَطِي تَكَلَّمْتُ، أَنَّهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ رَعْشٌ عَظِيمٌ فِي أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَرْعَشُ أَمَامِي سَمَكُ الْبَحْرِ وَطُيُورُ السَّمَاءِ وَوُحُوشُ الْحَقْلِ وَالدَّبَّابَاتُ الَّتِي تَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلُّ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وَتَنْدَكُّ الْجِبَالُ وَتَسْقُطُ الْمَعَاقِلُ وَتَسْقُطُ كُلُّ الأَسْوَارِ إِلَى الأَرْضِ. وَأَسْتَدْعِي السَّيْفَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ جِبَالِي،

يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَيَكُونُ سَيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى أَخِيهِ. وَأُعَاقِبُهُ بِالْوَبَاءِ وَبِالدَّمِ، وَأُمْطِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَيْشِهِ وَعَلَى الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ الَّذِينَ مَعَهُ مَطَرًا جَارِفًا وَحِجَارَةَ بَرَدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبْرِيتًا."(حِزْقِيَال ٣٨ : ١٨-٢٢)

وورد أيضا: "فَتَسْقُطُ عَلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ أَنْتَ وَكُلُّ جَيْشِكَ وَالشُّعُوبُ الَّذِينَ مَعَكَ، أَبْذُلُكَ مَأْكَلاً لِلطُّيُورِ الْكَاسِرَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَلِوُحُوشِ الْحَقْلِ. عَلَى وَجْهِ الْحَقْلِ تَسْقُطُ، لأَنِّي تَكَلَّمْتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأُرْسِلُ نَارًا عَلَى مَاجُوجَ وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي الْجَزَائِرِ آمِنِينَ" (حِزْقِيَال ٣٩ : ٤-٦)

لقد تبيّن مما ذكرنا من آيات القرآن الكريم وفقرات الكتاب المقدس أن كليهما يخبران عن اندلاع حرب بين يأجوج ومأجوج، غير أن القرآن الكريم قد ذكر أمرًا إضافيا وهو أن ما تدعو إليه هاتان الكتلتان من نظريات سياسية أيضا ستُدمَّر في هذه الحرب، فلن تستمر هذه النظريات طويلا بعد هذه الحرب.

ويتضح من الحديث أن الله تعالى سيُنزل المسيح الموعود لحماية الإسلام عند ظهور فتن يأجوج ومأجوج وضعْف الإسلام، وأنه سيَظهَر في الشرق، وأن الدجال سيهلك بعد ظهوره، وأن المسلمين لا يملكون عندها قوة مادية، إلا أن جماعة المسيح الموعود ستواصل عملها بالدعاء والتبليغ، وأن يأجوج ومأجوج سيدمَّران بعذاب السماء، وأن الله تعالى سيجعل الإسلام غالبا ثانية، ويقول للأرض أن بركتك سترجع إليك، فيكفي القليل من الرزق كثيرا من الناس، ولن يبقى لديهم طمع ولا جشع، ويميلون إلى الروحانية بدلاً من المادية، إلى أن يصبح الإسلام غالبا (أبو داود، كتاب الملاحم).

خلاصة القول إن الله تعالى قد أخبر في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ عن الفتن الكبرى التي ستحاول القضاء على الإسلام في الزمن الأخير، وأخبر أن هذه الشعوب التي ستظهر في الزمن الأخير لتؤجج النيران ضد الإسلام، سيدمّرها الله مع أنصارها تدميرًا.

لقد ذكرتُ عند شرح الكلمات أن تَبَّ يعني هَلَكَ، وأيضا خاب وخسر في هدفه، وقال المفسرون في تفسير ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: صَفِرتْ من كل خير

(البحر المحيط). ومن معاني اليد: العزةُ والمكانة والقوة والغلبة والمُلك والجماعة؛ وعليه فقوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ يعني:

١: دُمِّرت يدا أبي لهب، ٢: هلَك حزبا أبي لهب وخابا في سعيهما، ٣: قُضي على عزة أبي لهب وقوته وملكه وغلبته، ٤: حُرم حزبا أبي لهب من كل نفع وخير.

وأبو لهب يعني حرفيًا: صاحب النار الملتهبة، ويعني عرفًا مخترع الأشياء النارية الملتهبة، أو مَن كان مصيره الاحتراق في لهب النار. أما المفسرون فيقولون أن تسميته بأبي لهب راجع إلى حُسنه وإشراق وجهه. لقد بيّنت من قبل إنه لا يراد من أبي لهب شخصٌ معين، بل هو إشارةٌ إلى أمة تصبح غالبة في الزمن الأخير، وتؤجّج النيران ضد الرسول ﷺ أو الإسلام، أو تخترع مخترعات نارية مشتعلة وتضم إليها الشعوب المجاورة لتناصرها، فتصبح كأنها يدان لها. ونلحظ في الزمن الحاضر أن هناك كتلتين متآمرتين على الإسلام والرسول ﷺ؛ إحداهما تضمّ بعض القوى الغربية، والأخرى تضم بعض قوى الشرق وأنصارها. ثم إن هذه الشعوب يمكن أن تستحقّ أن تسمى "أبا لهب" من حيث ظاهرها، فهم بيض الوجوه (حمرٌ) حِسانها، وهي "أبو لهب" مِن حيث باطنها، إذ تخترع القنابل الذرية والهيدروجينية التي تنتج النار واللهيب. ثم إنها يمكن أن تسمى أبا لهب لأن مصيرها الاحتراق في نيران الحرب، وأيضا لأنها قد أوقدت النار في العالم بنشر منشورات خطيرة ضد الإسلام والرسول ﷺ.

ومع أن الحديث في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قد جاء بصيغة الماضي، إلا أن من المعروف في قواعد العربية أن يرد الماضي بمعنى المستقبل للتأكيد والقطعية، وكأن الأمر قد تحقّقَ سلفًا، وعليه فقد استعمل الله تعالى فعل الماضي ﴿تبّتْ﴾ و﴿تَبَّ﴾ للإشارة إلى أن فشل هذه الأمم في القضاء على الإسلام وهلاكَها، أمرٌ قطعي ويقيني.

والجدير بالتدبر هنا أن الله تعالى قد ذكَر هنا هلاك يدَيْ أبي لهب أولاً ثم هلاكه هو؛ مما يعني أن هاتين الكتلتين من قوى الشرق والغرب ستسعيان بكل ما في وسعهما لضم البلاد الأخرى إلى صفوفهما، وستنضم إليها فعلاً، وتصير لها بمثابة

اليد حتى تفتخر كل منهما بأنصارها، ولكن الله تعالى سيهيئ من الأسباب ما يدمر أنصارهما أولاً، ثم يدمّرهما نفسيهما.

وهناك أمر لطيف جدير بالذكر، وهو أن الأحاديث التي تحدثت عن ظهور الحركات المعادية للإسلام في الزمن الأخير تكشف أيضًا أن الله تعالى سيُنزل المسيح الموعود عند ظهور تلك الفتنة ليتصدى لها، ولكنه يحاربها بالدعاء، إذ ورد: "لا يدانِ لأحدٍ بقتالهم" (مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال).. أي أن مواجهة المسلمين لهذه القوى المعادية للإسلام بالأسلحة المادية مستحيلة، إذ سيكونون في حالة ضعف، غير أن الله تعالى سيستجيب لأدعية المسيح الموعود، فيهيئ أسبابًا تدفع هذه القوى كي تتحارب فيما بينها وتهلك وتذوب ذوبان الملح في الماء. والقرآن أيضًا قد أطلق على الشعوب المناصرة لعدو الإسلام هذا تسمية: ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، والحديث أيضا يذكر لفظ (يدانِ) في سياق فتن الزمن الأخير، مما يدل أن الله تعالى قد أعطى النبيَّ ﷺ علمَ الفتن في الزمن الأخير، وأخبره باستحالة محاربة الشعوب التي تخرج في الزمن الأخير بالأسلحة المادية، ولذلك قال النبي ﷺ: "لا يدانِ لأحد بقتالهم".

باختصار، إن قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ يتضمن نبوءةً بأن كل الشعوب والأفراد الذين يهبّون للهجوم على الإسلام في الزمن الأخير، سوف يدمَّرون ويبادون ولن يستطيعوا القضاء على الإسلام.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

ما أغنى عنه: أغنى عنه غَناءَ فلانٍ ومغناه أي: نابَ فلانًا؛ ويقال: ما يغني عنك هذا؟ أي ما يجدي عنك. وأغنى عنه كذا: نحّاه عنه وبعّده. وما أغنى فلان شيئا: أي لم ينفع في مُهِمٍّ و لم يَكْفِ مؤونةً. (الأقرب)

كسب: كسب الشيءَ: جمعه، وكسَب مالاً وعلما: طلَبه وربِحه. وكسَب لأهله: طلَب المعيشة. (الأقرب)

وفي "المفردات" للراغب: "الكسبُ ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلابُ نفعٍ وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المال."

التفسير: إن "ما" في قوله تعالى ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ قد تكون نافية أو استفهامية، وفي حالة اعتبارها استفهامية يكون المعنى: ماذا سيجديه مالُه وكسبُه؟ أي لن ينفعه ماله ولن ينقذه من الهلاك.

وقال المفسرون إن "ما" في قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قد تكون موصولة أو مصدرية (البحر المحيط).

لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن الأمم المهاجمة للإسلام ستهلك، بل سيهلك أنصارها الذين يدورون في فلكها جلبًا للمنافع، وسيرجعون خائبين، أما الآن فقد بيّن الله تعالى أن هذه الأمم المعادية للإسلام ستكون غنية جدا، ولن تكسب مالاً كثيرا بمخترعاتها وصناعاتها فحسب، بل ستستولي على خيرات البلاد الأخرى بل أراضيها، من خلال استثمار أموالها فيها بحجة التجارة. وقد جاء لفظ المال هنا نكرةً من أجل التعظيم والتفخيم (علم المعاني: التنكير)، ففيه إشارة إلى أن أموالها الطائلة أيضا لن تنقذها من الدمار. ثم قال الله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي: أن مالها المكسوب أيضًا لن ينقذها. وكأن الله تعالى قد قسم أموالها قسمين؛ أحدهما ما تربحه ببيع مخترعاتها وصناعاتها، والآخر ما تكسبه باستثمار أموالها في البلاد الأخرى. والواضح أن هذا الرسم القرآني ينطبق على الأمم الغربية كل الانطباق، إذ إنها تجمع الأموال نتيجة تقدُّمها الصناعي من ناحية، ومن ناحية أخرى تستثمر أموالها في البلدان الأخرى لسلب خيراتها، بل للاستيلاء على أراضيها.

إذن، فقوله تعالى ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ دليلٌ آخر على أن القول بنزول هذه السورة من أجل "عبد العُزّى" لا يصحّ بحال من الأحوال؛ لأن قوله تعالى ﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يشير إلى أموال طائلة، بينما لم يملك عبد العُزّى مالا

كثيرا، وما كان يُعتبر من الأثرياء، فمَن ملك عددًا من الإبل لا يُعتبر ثريا. فالحق أن قوله تعالى ﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ينطبق على الأمم الغربية حق الانطباق، فهي التي تعتبر أغنى شعوب العالم.

وقال المفسرون أن قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قد يكون إشارة إلى أعمالهم وجهودهم وأولادهم، وعليه فالمراد من الآية أن هذه الشعوب ستتباهى بأموالها ومخترعاتها وأنصارها، ولكنها لن تنقذها من الدمار، بل ستدفعها إلى هوة الدمار.

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

سيَصلَى: صَلِيَ بالنار: قاسَى حرَّها واحترق بها ودخل فيها. (الأقرب)

نارًا: النار تقال للهيب الذي يبدو للحاسّة، وللحرارة المجردة، ولنارِ جهنم، ولنارِ الحرب (المفردات). وعليه، فالمراد من ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أنه سيدخل النار حتمًا، أو سيُدفع إلى الحروب يقينًا.

التفسير: كما قلنا آنفًا، إن من معاني النار الحرب؛ وقال الله تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة:٦٥)، وعليه فقوله تعالى ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يعني: أن كل هذه القوى المسمّاة بأبي لهب، ستُلقى في نار حرب مروعة ذات لهب لا مثيل لها، ذلك أن النار قد وردت هنا نكرةً للتعظيم والتضخيم، وأيُّ نار في الدنيا هي أشدُّ حرًّا ولهيبًا من نار القنابل الذرية والهيدروجينية! فهي تلتهم المدن تلو المدن في دفعة واحدة. إذن، فهذه الآية تتضمن نبوءة بأن هذه القوى سوف تواجه حربا مروعة، وسوف تدمَّر بالتحارب فيما بينهما. لقد قال الله تعالى هنا ﴿سَيَصْلَى﴾، والسين وسوف؛ تدخلان على المضارع لتحديد الفترة المستقبلية التي سيقع فيها الفعل، فالسين للمستقبل القريب، أما "سوف" فللبعيد، وعليه فقوله تعالى ﴿سَيَصْلَى﴾ إشارة إلى أن هذه الشعوب ستوقد

نارًا للحرب ضد الرسول ﷺ بنيّة القضاء على دينه، وعندما تبلغ جهودها الذروة، فلن تلبث أن تُلقى في نار الحرب. وبالفعل نرى أن هذه القوى قد بلغت ذروة قوتها وعدائها للإسلام في عام ١٩١٤م أولاً، فما لبثت أن دخلت في حرب مخيفة انتهتْ في عام ١٩١٨. أما في المرة الثانية فقد اندلعت بينها الحرب عام ١٩٣٨ وانتهت في عام ١٩٤٥، وفي هذه السنة (١٩٤٥) بالذات اختُرعت القنابل الذرية والهيدروجينية التي دفعت بالعالم إلى حافة الدمار. وقد تزامنت الحرب العالمية الثانية أيضًا مع بلوغ جهود هذه الأمم ذروتها في عداء الإسلام.

وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤

شرح الكلمات:

الحطب: ما أُعِدَّ من الشجر شبوبًا للنار؛ النميمةُ (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني: القوى التي ستحمل الوقود لإيقاد النار، والتي تُكثر النميمة.

التفسير: لفظ المرأة معروف، ولكنه يعني هنا أُناسا تابعين يتأثرون ممن فوقهم، ومثاله قول الله تعالى لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة :٣٦، والأعراف:٢٠)، فالزوج هنا لا يعني الزوجة فقط، بل أتباع آدم الذين كانوا يطيعونه فيما يأمرهم به، وعليه فقوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني أنه لن تنضم إلى صفوف "أبي لهب" جلبًا للمنافع الأممُ التي سُميت هنا "يداه" فقط، بل سينضم إليه قومٌ من مواطني تلك الدول، فيحرّضونها على اتخاذ التدابير والمكائد للقضاء على الإسلام والمسلمين. بمعنى أنهم سيعملون على إعداد ونشر المنشورات المعادية للإسلام والمحرّضة على حربه، وكأنهم يحرضون دولها على إشعال هذه الحرب ضد الإسلام بإمدادها بالوقود، وبالنميمة عليه، وبنشر الأباطيل ضده.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

جيدها: الجيد: العنق. (الأقرب)

المَسَد: حبلٌ مِن ليفٍ؛ وقيل: الحبلُ المضفورُ المحكَمُ الفتلِ؛ المِحورُ من الحديد، مِرْوَدُ البَكْرة الذي تدور عليه. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ يعني: ستكون حبال مُحكَمة الفتل في أعناق الأمم التي تكون بمنزلة المرأة للشعوب المسماة بأبي لهب، بمعنى أنها ستعادي الإسلام عداءً شديدًا لن يزول. كما أن فيه إشارة إلى أن تلك الأمم ستُدعى حرةً في الظاهر، ولكنها تكون مصفّدة بتقاليد عصرها وعاداتها، ولن تتمتع بالحرية حقًّا إلا أن يحررها الله منها.